المحاضرة الثالثة: النظرية الظاهراتية (الاتجاه الفينومينولوجي).

هناك مجموعة من العلماء حاولوا الابتعاد عن ردة فعل المجتمع بالذات الرسمية وحولوا اهتماماتهم نحو ردة فعل الشخص نحو فعله المنحرف، فالوضعيين قد اهتموا بالعوامل المسببة والمفسرة للجريمة والانحراف، في حين يركز أنصار هذه النظرية جهودهم على الخبرات الذاتية للمنحرف نفسه، لمعرفة الطريقة التي يفكر بها تجاه تلك الخبرة المنحرفة.

ومصطلح فينومينولوجي Phénoménologie مصطلح يوناني مقسم إلى جزئين Phainomenon وتعني الشيء الظاهر، Logos وتعني دراسة أو علم، بمعنى دراسة الأشياء الظاهرة.

وازدهرت المدرسة الظاهراتية في علم الاجتماع في ألمانيا والمناطق المجاورة لها فيما بين الحربين العالميتين، واستمدت أفكارها من فلسفة " إدموند هوسرل" Husserl و "شوتز Schutz" .

ففي كتاب "**هسرل**" "الأفكار: مقدمة في الظاهراتية الخالصة Ideas Introdction to Pure Phenomenology" يوضح أن الفلسفة الظاهراتية تتبنى منهجية تتضمن:

1_ وضع كل الافتراضات المسبقة جانبا.

2_ وضع تحيزاتنا ومعتقداتنا المسبقة جانبا لضمان الحيادية.

3_ البحث عن آليات منهجية للملاحظة والوصف والتصنيف تسمح باكتشاف ماهية الواقع، وما فيه من روابط، مؤكدا نفيه لصلاحية الأساليب الامبريقية التجريبية.

كما لا يهتم كثيرا الباحثون وفق هذه النظرية بوصف أفعال الناس بل يهتمون كثيرا بمحادثات الفاعلين الاجتماعيين ورواياتهم عن أفعالهم، وشعورهم بما يحيط بهم.

ويقتصر المنهج الظاهراتي على الدراسة الوصفية للظواهر الاجتماعية كما توجد في وعي وإدراك الفاعليين الاجتماعيين، دون الاستناد إلى مرجعيات نظرية أو وضع فرضيات مسبقة عن الواقع الاجتماعي، ويصبح التركيز على الحياة اليومية للفاعلين وتفسيراتهم ومقاصدهم أهم ما يمكن الاعتناء به.

ترتكز السوسيولوجيا الفينومينولوجية على دراسة وتحليل واقع الحياة اليومية، وإظهار مكوناتها من خلال المفاهيم التي يكونها الناس العاديون عن حياتهم الاجتماعية بلغتهم، ولا يسعى علم الاجتماع

الفينومينولوجي إلى وضع مفاهيم عن حياة الناس الاجتماعية، ويترك هذه المهمة لهؤلاء الناس، ويكتفي الباحث بتسجيل الأفكار والمفاهيم التي يصيغها الأفراد بلغتهم عن حياتهم اليومية.

وعليه نلاحظ أن السوسيولوجيا الظاهراتية تعد بمثابة ثورة في السياق المعرفية، حيث رفضت البراديغمات السائدة، وكذلك كل الرصيد المعرفي السوسيولوجي، وأعطت قيمة وأهمية بالغة للأفراد حيث جعلتهم هم المعبرين عن انشغالاتهم وتصوراتهم وروابطهم بدلا من أن يقوم بهذا الباحث السوسيولوجي، فهذه النظرية تعطي أهمية لكل الظواهر البسيطة والثانوية وكذلك الأساسية حيث لا تميز بينها.

ويوصي أنصار هذا الاتجاه الباحث الاجتماعي بضرورة التخلي عن كل المقولات والمفاهيم الجاهزة والانصراف إلى المعطيات من صميم الحياة اليومية للناس العاديين بهدف بناء نظرية اجتماعية جديدة تكون بديلة للنظرية الاجتماعية التقليدية السائدة.

نقد النظرية الظاهراتية:

على الرغم من أن هذه النظرية جاءت لاستكمال ما قصرت فيه الوضعية في دراستها للفرد والمجتمع إلا أنها عجزت عن تقديم نظرية متكاملة عن المجتمع أو الفاعل الاجتماعي، ولهذا يمكن اعتبارها منهجية أكثر من اعتبارها نظرية.

_إن المنهجية التي تبنتها هذه النظرية في فهم الظواهر الاجتماعية وتركيزها على الفرد ووعيه جعلها تواجه صعوبة في صياغة تعميمات نظرية حول الواقع الاجتماعي، لأن كل فرد له سيرته الذاتية الخاصة به.

_ يعتمدون على وسيلة الملاحظة بشكل أساسي، ولهذا يرى منتقدوهم أن الاعتماد على الملاحظة في دراسة الجريمة والانحراف يعد محدودا فمن الصعب أن يرتكب الشخص المخالفات أو الجرائم أمام الناس إلا نادرا، إضافة كما أن جل دراساتهم فكانت عن الشواذ جنسيا ومدمني المخدرات.